

تستطيع شراءه من القمح والذرة والفل، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين.

ولم تكن «خضرة» أقلَّ خطرًا من زنوبة ولا أهون شأنًا، وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج من المدينة وحين تعود إليها، ويشقى بها الرجال والنساء جميعًا، ويسعد بها الرجال والنساء جميعًا أيضًا.

كانت دلالة، تفد إلى العاصمة من حين إلى حين، فتجلب منها مقدارًا غير قليل من هذه العروض الخفية اليسيرة الرخيصة التي هي مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتعة للرجال، لم يكن في المدينة بيت مترف إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهرًا وتدخله سرًا أيضًا، ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضًا تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها، وقد تُفسي إليها بالأحاديث، وقد تُحمّلها الرسائل والأنباء، وكان نشاط خضرة يشد ويغصم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة؛ فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض، تصطنع هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائق والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه في القطار.

كانت إذا عادت إلى المدينة تسامع بها الناس، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لهن، وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزيارتها الأولى، تسبق إلى خير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها، ومن صنوف الأعطار، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهيئة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها، ومن أنواع الخرز بنوع خاص، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حليًا لأذرعهن يعالجن لبسها علاجًا شديدًا دقيقًا خطرًا وقلما يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحًا بليغًا، وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيدًا متصلًا في البيوت للنساء والأطفال جميعًا، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة؛ فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها الأضراس، وتجد فيها الأفواه والحولق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التي تجدها فيما يصنع في المدينة من الحلوى السمسمية أو الحمصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه.